رجال من معارك الإسلام

تأليف
محمد شديد

المؤمن الثائر
أبو بصير

مؤسسة الرسالة

المؤمن الثائر
أبو بصير

أبو بصير: عُتْبَةُ بنُ أُسَيْدٍ، أحد شباب الرعيل المؤمن الأول، الذين سبقوا بالإسلام وتحملوا محنة العهد المكي في صبر وثبات.

ولئن كانت محنة العهد المكي قد انتهت بالنسبة لأغلب الجماعة المؤمنة بالهجرة من مكة إلى المدينة، فإنها قد استمرت بالنسبة لمجموعة من المؤمنين حبستْها قريش، وحالَت بينها وبين الهجرة.

لقد أدركَت قريش أن في الهجرة، ونقل مركز الدعوة إلى المدينة خطراً كبيراً عليها، فهي تعلم أن أهل المدينة- الأنصار- رجال حرب، وقد بايعوا النبي- صلى الله عليه وسلم- في العقبة على أن ينصروه حين يقْدُم إليهم، فإذا أنضم إليهم المهاجرون أصبحوا قوةً يُخشى خطرُها، كما أن المدينة تقع على طريق قوافل قريش إلى الشام، تلك القوافل التي تحمل تجارتها وتُعْتَبَر المصدر الأساسي لاقتصادها،

ومن هنا، حاولت قريش أن تمنع تلك الهجرة، فقرّرت أن تقتل النبي صلى الله عليه وسلم، قبل أن يهاجر، وأعدّت لذلك خطةً لم تنجح، وهاجر صلى الله عليه وسلم، ولحق سالماً بأصحابه في المدينة.. وكل ما استطاعته قريش أنها حبست عَدداً من المؤمنين، ومنعتهم من الخروج من مكة، كان من بينهم أبو بصير: عتبة بن أسيد، وبذلك امتدت المحنة بالنسبة إلى هذه المجموعة المؤمنة نحو عشرين عاماً، أي: إلى ما بعد صلح الحديبية.

ونستطيع أن نتصوّر مدى قَسوة المحنة على هؤلاء المستضعفين الذين حُبسوا في مكة بعد الهجرة، فقد كانوا قبل الهجرة يتحمّلون التعذيب، وهم بالقُرب من النبي صلى الله عليه وسلم، يسْكُب في قلوبهم الأمن والإيمان، ويمدُّهم بعزيمة الصبر والثبات، ومعهم إخوانهم من المؤمنين يشاركونهم غَمَرات تلك المحنة، أما بعد الهجرة فقد أصبح هؤلاء المستضعفون غرباء في بلدهم وبين أهليهم، يعيشون في ظل مجتمع جاهلي، يُضيّق عليهم ويسف في اضطهادهم وتعذيبهم، وفي هذه الفترة- ما بعد الهجرة- خاضت دولة المدينة مع

المشركين معارك، وهم محبوسون في مكة، لا يملكون هجرةً ولا حركةً، ولا إسهاماً في جهاد.

وقد اعتبرت قريش هذه المجموعة المؤمنة أسرى، وبالغت في تعذيبها والتضييق عليها، وقد حدثت محاولات من المسلمين في المدينة لتخليص هذه المجموعة، ولكن قريشاً أحكمت قبضتها عليهم، وقد أنزل الله تعالى فيهم قرآناً، جعلهم من أسباب الإذن بالقتال، فقال عز وجل:

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

[النساء: ٧٥]

صلح الحديبية:

وتتصل الأحداث التي مرّت بأبي بصير وإخوانه المحبوسين في مكة، إتصالاً قوياً بقصة صلح الحديبية، بل إن

المجموعة المؤمنة.

وتَخلُص وقائع صلح الحديبية، في أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة في نحو ألف وخمسمائة من أصحابه، يريد العمرة، فلما كانوا بعسفان جاءه بشر بن سفيان العتكي، وكان أرسله إلى مكة عيناً له، فقال:

يا رسول الله، سمعتْ قريشٌ بخروجك، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت ثقيف، وقد نزلوا بذي طوىً، يعاهدون الله أن لا تدخل مكة عليهم عنوةً أبداً.

فقال: يا ويح قريش، نهكتْهم الحرب، ماذا عليهم لوخلُّوا بيني وبين سائر العرب، فما تظن قريش! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني اللهُ به، حتى يظهره الله، أو تنفرد سالفتي.

ونزل النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه بأقصى الحديبية قريباً من مكة، وجاءه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فأخبرهم: أنه لم يأتِ يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، مُعظِّماً له.

فانطلق بديل حتى أتى قريشاً، وقال لهم: يا معشر

قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً له. أيزور البيت سائر العرب، ويُمنع عنه ابن عبد المطلب؟!

فقالت قريش: أيريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً، فتتحدَّثُ العربُ أنه دخلها علينا عنوةً؟! والله لا كان هذا أبداً.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده، لا تَدْعُني قريش اليوم إلى خطة يسألون فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها..

وبعث عثمان بن عفان إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، إنما أتى زائراً للبيت ومعظماً له.. وأمر عثمان أن يتصل بجماعة المؤمنين المحبوسين في مكة، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله وشيك أن يظهرَ دينه بمكة، حتى لا يستخفي فيها الإيمان.

وتوالت الأحداث.. فقد تأخَّر عثمان في مكة ثلاثة أيام. وبلغ المسلمين أنه قُتل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا نَبْرَحُ حتى نُناجز القوم.

ودعا صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى البيعة، فبايعوه على الفتح أو الشهادة. وهي بيعة الرِّضوان التي نزل فيها قول الله تعالى:

لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴿١٨﴾

[الفتح: ١٨]

ثم عاد عثمان من مكة سالماً.

وبعثت قريش جماعة فيهم سهيل بن عمرو، وقد اتفقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على شروط الصلح، وكان من بينها:

- أن تضع الحرب عشر سنين، يأمنُ الناس فيها.
- أن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون عامهم هذا، دون أن يدخلوا مكة، ثم يعودون في العام المُقْبل يُقيمون فيها ثلاثة أيام، ليس معهم إلا سلاح الراكب.
- أنَّ من أتى المسلمين بالمدينة من قريش مسلماً، يردُّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة. ومَنْ أتى قريشاً مرتداً عن الإسلام، لا ترده.

ورأى الصحابة في هذه الشروط أو في بعضها، إجحافاً

بهم، فثارت نفوسهم، وبلغت الثورة ذُرْوتَها عند عمر بن الخطاب، فذهب إلى أبي بكر، وقال له:

- ألَيس هو برسول الله؟!
- بلَى.
- أو لَسْنا بالمسلمين؟!
- بلَى.
- أوَ لَيْسُوا بالمشركين؟!
- بلَى.
- فَعلام نُعطي الدَّنية في ديننا؟!

فقال أبو بكر: يا عمر، إنه رسول الله، وليس يَعْصي ربه وهو ناصرُه، استَمْسك بغرزه حتى تموت. فإني أشهد أنه رسول الله.

وذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال له:

يا عمر: إني رضيت وتأبى؟!

وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على السِّلْم، وعلى أن تضعَ الحرب أوزارَها، بينه وبين قريش، مدةً يأمن فيها الناس، وتتمكن الدعوة فيها من حرية الحركة.

وبدأ علي بن أبي طالب في كتابة العهد، فلما بدأ يكتب

رسول الله.. رفض سهيل وقال: لو أعلم أنك رسول الله ما خاصمتك ولا حاربتك. ولكن أكتب اسمك واسم أبيك.

فضجّ المسلمون وارتفعت الأصوات، وقالوا: لا يكتب إلا محمد رسول الله، وإلا فالسيف بيننا وبينهم.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم اسكتهم، وأمر علياً أن يكتب: هذا ما اتفق عليه محمد بن عبد الله...

وكان الشرط الخاص بالمؤمنين المحبوسين في مكة، هو الذي أغضب المسلمين، فقال عمر:

يا رسول الله، أترضى بهذا؟

قال: نعم، من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

وفي هذا الجو الثائر الذي تغلي فيه النفوس، جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد أفلت من محبسه في مكة، ورمى نفسه بين أظهر إخوانه المسلمين.

ولما رأى سهيل بن عمرو ابنه أبا جندل، قام إليه فضربه حتى رقّ له المسلمون، وبكوا.

قال سهيل: يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه أن تردّه، قد لجّت- وجبت- القضية بيننا.

وجعلَ أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرَد إلى المشركين يفْتِنُونَني عن ديني، ألا ترون ما لَقيت؟!

ولم تَجْدِ محاولات النبي صلى الله عليه وسلم مع سهيل أن يَدَع له أبا جندل.. فقال له:

يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً..إنا عقَدْنا بيننا وبين القوم صُلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطُونا عهد الله، لا نَغْدُر بهم.

فزاد إرجاع أبي جندل المسلمين كَرْباً على ما بهم من كرب.

وبلغ الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالنحر والحلق ثلاث مرات، فلم يقم منهم أحد.

ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على أم المؤمنين أم سلمة، فقال: هَلَك المسلمون، أمرْتُهم أن يَنْحَروا ويَحلقوا فلم يفعلوا، وهم يسمعون كلامي، وينظرون في وجهي.

فقالت: يا رسول الله، لا تَلُمْهُم، فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح. ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم

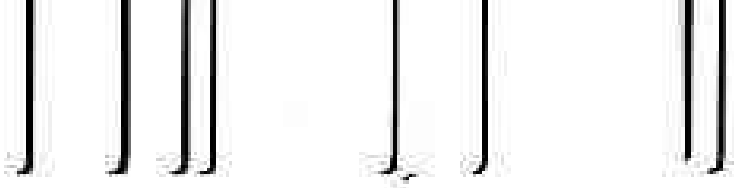

ثم نزلت سورة الفتح في طريق العودة إلى المدينة.

قال المسلمون: صدق الله ورسوله. فهذا أعظم الفتوح. والله يا نَبيَّ الله ما فَكَّرنا فيما فكرت فيه. ولأنت أعلم بالله وبأمره منا.

وقال عمر بعدها: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلّي وأعتق، مخافةَ كلامي الذي تكلمت به في صلح الحديبية.

* * *

أبو بصير في المدينة:

بعد أن وصل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون المدينة، قَدِم أبو بصير، قد أفلت من محبسه في مكة وسار على قدميه سبعاً حتى وصل المدينة.

وسَرْعانَ ما بَعثَت قريش في أثره كتاباً مع رجل من بني عامر، ومعه مولىً له يُدْعى كوثر يهديه الطريق، فقدما على النبي صلى الله عليه وسلم بالكتاب، وقد جاء فيه.

قد عَرَفْت ما شارطناك عليه، وأشهدنا بيننا وبينك مِنْ رَدَّ مَنْ قَدِم عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا أبي بصير.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بصير أن يرجع معهما إلى مكة.

فقال أبو بصير: يا رسول الله. تَرُدُّنِي إلى المشركين يفتنونَني في ديني!!

فقال صلى الله عليه وسلم: يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً.

فجعل أبو بصير يصرخ قائلاً: يا رسول الله، تَرُدُّني إلى المشركين!!

إنها صرخة مؤمن قضى في جحيم قريش منذ إسلامه نحو عشرين سنةً، تحمّل فيها ما لا يُطاق من الحبس والتعذيب، حتى إذا أفلَت من ذلك الجحيم، وتَنَسَّم عبير الحرية. لأول مرة بين إخوانه في المدينة، يعود ثانياً إلى ذلك العذاب!!

ولكنه الإسلام.. «ولا يَصْلُح لنا في ديننا الغدر».

وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: انطلق يا أبا بصير فإن الله سيجعل لك مخرجاً.. ودفعه إلى العامري ومولاه.

وجعل المسلمون يقولون له: أبْشر يا أبا بصير فإن الله جاعل لك مخرجاً.. والرجل يكون خيراً من ألف رجل.

وانطلق العامريُّ ومولاه كَوْثَر بأبي بصير عائدين به إلى

الأنصار- يوماً إلى الليل.

فقال له أبو بصير: أصارمٌ سيفُك يا عامِري؟ قال: نعم. فقال له: أرِنيه. فأعطاه العامريُّ سيفَه، فأمسَك به أبو بصير وعلاه به حتى قتله. وفرّ المولى مذعوراً إلى المدينة، حتى أتى المسجد والحصى يطير من تحت قدميه.. فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم، قال: إن هذا الرجل قد رأى ذُعْراً. ثم سأله: مالَكَ.

قال: قَتَل صاحِبُكم صاحبي، وأفلت منه، ولم أكد، وإني لمقتول، واستغاث بالنبي فأمنه.

ثم قدم أبو بصير على بعير العامريّ، متوشحاً سيفه، فأناخ بعيره على باب المسجد ودخل فقال:

يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني أن أُفتن، ويُعبث بي أو أكذب بالحق.

فقال صلى الله عليه وسلم لكوثر: ترجع به إلى أصحابك؟

قال: يا محمد؟ مالي به قوة ولا يدان.

فقال لأبي بصير: اذهب حيث شئت.

فانصرف أبو بصير ببعيره وسيفه، ومعه عمر بن الخطاب يُشيِّعه خارج المدينة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصراف أبي بصير: ويحه، مِسْعَرُ حرب، لو كان معه رجال.

وذهب أبو بصير إلى العيص، وهو مكان على ساحل البحر على طريق قوافل قريش إلى الشام، حيث لَحِق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو، وعدد من المحبوسين في مكة.

وهنا نجد فجوة في كتب السيرة، فلم تُعْنَ بهذه الحركة، عنايةً كافيةً، واكتفت بإشارات خفيفة.

لقد كانت هذه الحركة، من القوة والتنظيم والفاعلية، بحيث أضَرَّت بقريش ضَرَراً بليغاً، حتى أذلتها وجعلتها تلجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وتستغيث به أن يكف عنها أبا بصير وإخوانه، وأُرغِمت قريش على التنازل عن أقسى شرط من شروط صلح الحديبية.

كانت حركةً من حركات المقاومة الشعبية، أو حربَ العصابات، كما نطلق عليها في العصر الحديث، وكانت من وحي تفكير يُعَدُّ سبقاً عجيباً في ذلك الوقت.. كانت حركة، لها جيش وقيادة ونظام، وأقامت بما نسميه اليوم حصاراً اقتصادياً محكماً على مكة.

ظروف وقتها، أم كانت وفق خطة مُعدَّة من قبل؟

وإذا كانت ارتجالاً أو مصادفةً أوْحَتْ بها ظروف ساعتها، فلماذا اختار أبو بصير مكاناً نائياً على ساحل البحر، على طريق قوافل قريش إلى الشام؟

وماذا يستطيع وحده هناك.

وكيف لحق به أبو جندل وسبعون من إخوانه بعد أن أفلتوا من محبسهم في مكة؟.

تقول بعض كتب السيرة إن عمر بن الخطاب كتب إليهم بمكان أبي بصير.. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن أبي بصير: ويحه، مسعّر حرب، لو كان معه رجال.. ولكن هذا وحده لا يكفي.

والراجح أن هذه الحركة أُعدت من قبل وفق خطة مدروسة، اتفق عليها المؤمنون المستضعفون في مكة، وبدأ بتنفيذها أبو بصير.. وقام عمر بن الخطاب بدور بها.. وكانت هذه الخطة هي المخرج الوحيد لهؤلاء المؤمنين.

فرَّ سبعون من المؤمنين من محبسهم في مكة، وخرجوا منها يتسللون إلى حيثُ كان أبو بصير، وانضم إليهم شباب

مسلم من قبائل غفار وأسلم وجهينة، حتى بلغوا ثلاث مئة شاب.. لا يملكون مالاً ولا ظَهْراً ولا طعاماً ولا سِلاحاً.. ولكنهم سَرْعان ما حصلوا على ذلك كله من قوافل قريش.

«فكانوا بالعيص، على طريق عير قريش إلى الشام، وضيّقوا على قريش، فلا يَظفَرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرُّ بهم عير إلا اقتطعوها.. وكانوا قد أمّروا عليهم أبا بصير، فكان يُصلّي بهم ويقرئهم القرآن ويجمعهم لله يصلي بهم الجمعة- وهم له سامعون مطيعون..»[١].

ولما كانت مكة غير ذي زَرْع، يأتيها زادُها من خارجها، عن طريق قوافلها إلى الشام، كما أن ثراءها يأتيها عن طريق هذه التجارة، فقد تَعِبَتْ قريش من هذا الحصار، تعباً شديداً، حتى جاعت وجهدت.

* * *

وكان من بين القوافل التي استولى عليها جيش أبي بصير، قافلة لقريش مُقْبلة من الشام، عليها أبو العاص بن الربيع، زوج السيدة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.. تعرّض لها أبو بصير وإخوانه واستولوا عليها، وخلَّوا سبيل أبي العاص لأنه صهر رسول الله.

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي.

بيت زوجته زينب واستجارَ بها.

وبعد صلاةِ الفجر نادت زينب في المسجد: إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما علمت بشيء من هذا.

وذهب إلى ابنته فقال لها: إنا قد أجرنا من أجرت، ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم.. فطلبت من أبيها أن يَرُدَّ على أبي العاص ما أخذ منه.. فقال لها: أكرمي مثواه. ولا يَخْلُصُ إليك، فإنك لا تحلين له.

وأبو العاص بن الربيع ابن أخت السيدة خديجة رضي الله عنها، فهو ابن خالة زوجته زينب، وكان قد حبسها في مكة. ومنعها من الهجرة، فلما كانت معركة بدر، قاتل أبو العاص في صفوف قريش، وكان ضمن الأسرى، فبعثت زينب في فدائه من مكة، بقلادة لها كانت لأمها السيدة خديجة، فلما رآها النبي صلى الله عليه وسلم، رقَّ لها وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتَرُدُّوا إليها متاعها، فَعَلْتُم.

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم عهداً، أن يخلِّي سبيلَ زينب لتهاجر من مكة إلى المدينة.

وبعد الحديبية فرَّق القرآن بين المؤمنات وأزواجهن من المشركين. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لزينب: لا يَخلُص إليك، فإنك لا تحلّين له.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين:

إنا صاهرنا أبا العاص، فَنِعْمَ الصهر وجدناه. وإنه قد أقبل من الشام في أصحاب له من قريش، فأخذهم أبو بصير وأبو جندل وإخوانها، وأسروهم وأخذوا ما كان معهم. وإن زينب سألتني أن أجيرَه. فهل أنتم مُجيروه؟.

فأجاره المسلمون، وبعثوا لأبي بصير وأبي جندل وأصحابها أنهم قد أجاروا أبا العاص، وطلبوا منهم أن يبعثوا بقافلته إلى المدينة.

ورد أبو بصير وإخوانه الأسرى وكل شيء. أخذوه من قافلة أبي العاص إلى المدينة.

وقال ناس لأبي العاص: إنك في شرف من قريش، وأنت صهر رسول الله، فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة؟.

فقال: بئس ما أمرتموني، أفتتح ديني بالغدر وعدم الوفاء؟!

ثم ذهب أبو العاص بالقافلة إلى مكة، فأدّى كل ذي حق حقه، ثم قال: يا أهل مكة، هل بقي لأحد منكم مال لم

خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. والله ما منعني من الإسلام عنده؛ إلا خشية أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم.

ثم خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة.

* * *

وعجزت قريش تماماً عن مقاومة حركة أبي بصير، ولم تستطع أن تؤمّن طريق تجارتها إلى الشام. ولم تجد مفرّاً من الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ فبعثت إليه تسأله بالله والرحم، إلا كفّ عنهم أبا بصير.. وذكرت بعض الروايات: أن أبا سفيان زعيم قريش ذهب إلى المدينة يطلب ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُبلغه أن قريشاً قد تنازلت عن شرط صلح الحديبية، الذي يقضي برد من يأتي من مكة من المسلمين إلى المدينة.. وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقبل أبا بصير وإخوانه، فليسوا في حاجة إليهم.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى أبي بصير، أن يَكُفَّ عن التعرض لقوافل قريش، وأن يَقْدم بإخوانه إلى المدينة.

ووصل الكتاب إلى أبي بصير وهو على فراش الموت. فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده.

وعاد أبو جندل بإخوانه إلى المدينة.

واستقبل المسلمون أبا جندل وإخوانه، ولما علموا بموت أبي بصير، كانوا يتلُون قول الله تعالى:

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

[الأحزاب: ٢٣]